العقيدة الإسلامية

في القرآن الكريم ومناهج المتكلمين

الدكتور

محمد عياش الكبيسي

رسالة دكتوراه نالت درجة الامتياز

وزارة الثقافة والاعلام

دائرة الاعلام/ قسم الرقابة

رقم الاجازة / ١٧٦

تاريخها : ١٥/٤/١٩٩٥

الطبعة الاولى : ١٤١٦ هجري / ١٩٩٥ ميلادي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الحسام/ بغداد

مكتب الاثير للتنضيد الالكتروني

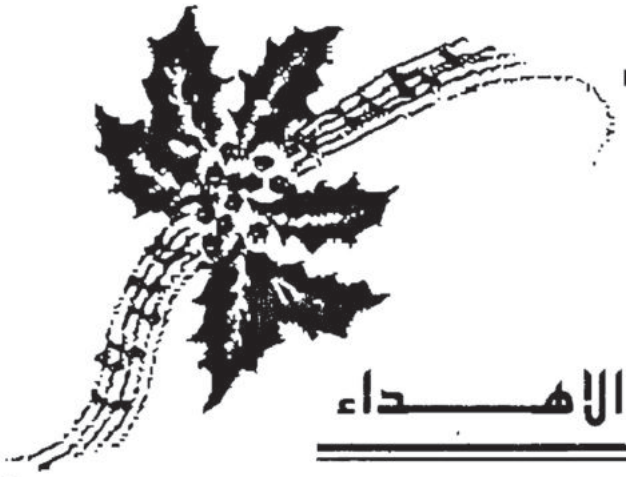

الاهـــــداء

الـــى «الذين قالوا لن نؤثـرك على ماجاءنـا من البينات والذي فطرنا فأقض ماانت قاض انما تقضي هذه الحيواة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا» .

الى «الذيـن إستـجابـوا للّه والرّسول مـن بعـد ماأصابهم القرح» . «الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» .

ثم الى اخويّ الحبيبين "مصطفى وعمر" - بعد إستئذان ابويّ الكريمين - .. اقدم بعض الزّاد للطريق الطويل .. عسى ان يكون نافعاً وخالصاً لوجه ربي الكريم ..

المؤلف

شكر ودعاء

بعد شكر الله - تعالى - يحق عليّ ان اشكر الايادي البيضاء التي وقفت معي في مرحلة الطبع هذه .. اولئك اخوتي النبلاء .. واخص منهم الاخ وصفي السامرائي .. الذي ضحى وبذل .. واعطى ومابخل ..

فله ولاخوتي جميعاً اطيب الود .. سائلاً المولى القدير ان يثيبهم بما قدموه سعادة الدارين ..

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة ، انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

والصلاة والسلام على الهادي الى الصراط المستقيم محمد وآله وصحبه اجمعين .

اما بعد : فلقد استطاع الاسلام بعقيدته السمحة الواضحة ان يذيب كل الحواجز العرقية والطبقية وغيرها ، ليدع الناس اخوة يعيشون على ارض الله ، لافضل لجنس على جنس ولا للون على لون الا بالتقوى : "ان اكرمكم عند الله اتقاكم" (١)

وسار المسلمون صفاً واحداً ، القدم بالقدم ، والكتف بالكتف ، لتحقيق خلافة الله في الارض ، ونشر النور والعدل في ارجائها .

الا ان الامة لم تلبث بعيداً حتى بدأت بوادر الانشقاق والاختلاف تظهر فيها من جديد ، ولم تكن هذه المرة للاصول العرقية او الطبقية المختلفة ، وانما للتباين الفكري الخطير الذي عدد في الامة دوائر الولاء والانحياز ، فأرتبك الصف وتعثرت خطاه .

وهذا التباين الفكري لم يستطع ان ينشر الامة ويمزقها لولا انه كان يدور حول المسائل العقيدية التي يصعب التغاضي عنها والتساهل فيها .

صحيح ان كثيراً من تلك المسائل قد نسي بطول الامد ، الا ان منها مالايزال حياً ولايزال قادراً على نفخ الروح في موات المسائل الاخرى .

لقد عالجت في بحث الماجستير واحدة من اخطر هذه المسائل الحية ، وهي مشكلة الصفات الخبرية ، وقد تبين لي حينها اننا بحاجة الى توسيع دائرة البحث لتكون دراسة موضوعية جديدة شاملة لاصول الدين والمسائل الخطيرة المتعلقة بها ، ثم المقارنة بين هذه الاصول بأعتبارها وحياً من الله - تعالى - وبين اعتبارها مزيجاً من الوحي والنتاج الفكري الانساني ثم التفريق بين المساحة التي لايمكن الخلاف فيها وهي مساحة الوحي المعصوم ، لتكون قاعدة لانطلاقتنا الفكرية الحديثة ، والمساحة القابلة للتمحيص والنقد . وهي لاشك مساحة واسعة وغنية بالآراء والخبرات المتراكمة التي لاغنى لنا عنها ابداً .

هذه دعوة واضحة لدراسة جديدة لهذا العلم وحياً وفكراً وتأريخاً ، لاستخلاص المنهج الجديد القادر على سد الثغرة ، وابعاد الاذى ، وحماية المسيرة المباركة من الارتباك ، والتفرق مرة ثانية .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

الفصل الثالث : الاسماء والصفات .

الفصل الرابع : القضاء والقدر .

اذكر في كل فصل منهج القرآن اولاً ثم اثني بمناهج المتكلمين .

واما الباب الثالث : فخصصته لبحث النبوات ، وقسمته على فصلين :

الفصل الاول : الانبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - من حيث : الايمان بهم ، ووظيفتهم ، وصفاتهم ، واسماؤهم ، ودلائل صدقهم ، واخبارهم ، في القرآن الكريم ، ثم مايميز مناهج المتكلمين من كل هذا .

الفصل الثاني : الوحي والرسالات ، تحدثت فيه عن الوحي وانواعه ، وموقف القرآن من الرسالات السابقة ، ثم ماينبغي ان يعرفه المسلم عن القرآن من القرآن ، ثم الآراء المهمة التي تميز المدارس الكلامية في كل هذا .

واما الباب الرابع : فخصصته لبحث السمعيات ، وقد قسمته على فصلين :

الفصل الاول : اليوم الآخر في القرآن الكريم ، ثم ما أثير من مسائل مهمة حول هذا الموضوع عند المتكلمين .

الفصل الثاني : العوالم الغيبية ، تحدثت فيه عن الملائكة ، والجن ومايتعلق بهم في القرآن الكريم ، ولم ار حاجة لذكر آراء المتكلمين هنا لانهم لم يأتوا بجديد في هذه المسألة لانها من الغيب البحت الذي لايعلمه الا الله ، ولاطريق للعلم به الا من جهة السمع .

وفي الخاتمة كانت الخلاصة والاستنتاجات .

هذا وقد ترجمت في الملحق بعض الاعلام التي يحتاج الى ترجمتهم مع مقدمة للتعريف بأهم الفرق .

ولقد كان كل هذا - والحمد لله - بعبارة واضحة مختصرة ، حتى اني حذفت الكثير مما جمعته خشية الاطالة ، وكلي امل ان اكون قد وفقت الى ماهدفت اليه - بعون الله ومدده - .

واخيراً فاني ارجو من القارئ الكريم ان لايبخل بنصيحة يسديها لاخيه او دعاءٍ بظهر غيب .

الباب الأول

الفصل الأول: مقدمات في العقيدة

الفصل الثاني: منهج القرآن في عرض العقيدة

الفصل الثالث: مناهج المتكلمين في عرض العقيدة

الفصل الأول

المبحث الأول: نظرة مبدئية

المبحث الثاني: نظرة تاريخية

المبحث الثالث: صلة العقيدة بعلم الكلام

المبحث الاول
نظرة مبدئية

خلق الله الانسان ، واهبطه على هذه الارض ، لحكمة حددها هو – سبحانه – يوم ان قال لملائكته :"اني جاعل في الارض خليفة"[1] ، والخلافة انما تكون بعبادة الله وحده : "وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون"[2]

والعبادة تعني : الخضوع الكامل لرب العالمين والطاعة المطلقة لما يأمر به – سبحانه – وهذا كله لا يمكن ان يتم بل ولا يوجد اصلا الابعد ان يفهم الانسان مقدمات هذه الغاية واولياتها ، فلا بد ان يفهم الانسان المقدمات التالية :

الاولى : معرفة الله الذي خلقه لهذه الغاية ، وحين لا يعرف الانسان خالقه فلا يمكن ان يحقق الغاية من خلقه ووجوده .

الثانية : معرفة ماذا يريد الله ، فان معرفة الله المجردة لا تقود الى العبادة ، او الطاعة ، لانه لا طاعه الا ويسبقها امر . فمع جهل الانسان بالامر ، لايمكن ان نحكم عليه بالطاعة او بالعصيان .

الثالثة : معرفة ما ينتج بالنسبة له على طاعته او عصيانه ، ماذا لو اطاع ونفذ امر الله ؟ وماذا لو خالف وعصى ؟

هذه الاسئلة الثلاثة لابد ان يكون الجواب عنهاواضحا قبل البدء بأي عمل ، وقد اجابت الديانات كلها بجواب شامل مقنع ، بل وجعلت الديانات كلها مهمتها الاولى والرئيسية هي هذه .

فملئت الكتب المقدسة غير المحرفة بالحديث عن"الله"الخالق ، وشرحت اسماءه وصفاته مما يزيل اللبس والخلط ، وحددت طريق معرفة اوامر الله بالرسل الكرام المؤيدين بدليل صدقهم"المعجزة" فهؤلاء مهمتهم ايصال رسالة الله الى خلق الله ، ثم اجابت عن السؤال الاخير فحددت النتيجة بوضوح :الجنة والنعيم الابدي للطائعين ، والنار للمارقين المعتدين .

هذه الاجوبة هي التي تكون ما نسميه"العقيدة"في كل دين ، وحين نقول"العقيدة الاسلامية"فمعنى هذا اجوبة الاسلام وهو الدين الذي جاء به خاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – على هذه الاسئلة[3]

---

(١) البقرة : ٣٠

(٢) الذاريات : ٥٦

(٣) ولذا اعتبرت اصول الدين ثلاثة : الايمان بالله ، والايمان بالرسل ، والايمان باليوم الآخر ، واكثر كتب الكلام مكرسة لهذه المسائل الثلاث ، فتراها تبدأ بالألهيات ثم بالنبوات ثم بالسمعيات ، واغلب مايذكرون في السمعيات "اليوم الاخر " .

هذه الاجوبة الثلاثة ضمت مباحث كثيرة ، وغالبها اجوبة تفصيلية للاسئلة الثلاثة نفسها ، بمعنى ان تلك الاسئلة قابلة للتفصيل ، ففي السؤال الاول من الممكن ان نفصل ونفرع فنقول : الله هو الخالق لكل شي لكن اعمالنا أنخلقها نحن ام يخلقها الله ؟ اذا اجاب الدين عن هذا السؤال فمعنى هذا تكوين مبحث رابع في "العقيدة" . واذا سألنا تفريعا عن السؤال الثاني : كيف تصل رسالة الله الى رسوله ؟ فاذا اجاب الدين عن هذا السؤال بان قال : عن طريق الملائكة فمعنى هذا تكوين مبحث خامس . وحينما نفرع سؤالا آخر : ما حقيقة الرسالة التي جاء بها الرسول ؟ ويجيبنا الدين عنها بأنها "الاسلام" او "القرآن والسنة" فمعنى هذا تكوين مبحث سادس . لهذا ورد عن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – انه عرف الايمان بهذه الاجوبة فقال : ان تؤ من بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدرخيره وشره"[1] وهذه الستة قد تكون اكثر كلما تفرعت الأسئلة ، فيمكن ان يتفرع عن الكتاب "الايمان بانه خالد" و"الايمان بانه معجز" و"الايمان بانه محفوظ من التحريف" و"الايمان بانه الرسالة الخاتمة" وهكذا ، ولكن الحقيقة ان كل هذه التفريعات من الممكن ان تختصر بضم بعضها الى بعض حتى ترجع ثلاثة .

ومن الممكن ان يفهم الانسان الاجوبة الصحيحة المختصرة عن هذه الاسئلة الثلاثة، ثم ينطلق الى ميدان العمل ، ميدان الخلافة ، اذ ان وظيفته الاولى هي هذه ، انها – والله – مقاولة عمل ، يعرف العامل من رب العمل ، وكيف يتسلم منه التوجيه ، وما هو اجره ، وبعد هذا فلا يحسن بالعمال ان ينشغلوا بهذه ويقفوا عندها ، بل الساحة تنتظرهم .

هكذا فهم السلف عقيدتهم ، وكل سيرهم واخبارهم الجماعية والفردية تشخص بهذه الحقيقة : انهم عرفوا الله ، وعرفوا اوامره عن طريق رسوله ، وعرفوا يوم الحساب والجزاء ، فانطلقوا . فهل الذين جاؤا من بعدهم كذلك ؟ بل هل نحن كذلك ؟ لنر النظرة التاريخية .

---

(١) رواه مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووى : ١/١٥٧ . والبخارى نحوه ، فتح الباري : ٨/ ٥١٣ . والترمذي : الجامع الصحيح : ٥/ ٨ ، وغيرهم .

المبحث الثاني

نظرة تاريخية

العقيدة الاسلامية بأركانها الثلاثة ، عقيدة هادفة ، تسعى لغايتها بشد وحزم ، ولم تكن الطريق امامها معبدة او مفروشة بالرياحين ، لقد شخصت امام خطواتها مائة مشكلة ومشكلة ، وسال الدم على جنبات الطريق ، وسخّر الشيطان حزبه لأعاقة المسير ، مشككين ومخذلين ، او مجابهين ومقاتلين ، وكانت الحرب سجالاوالى اليوم ، فهل مع كل هذا حافظت العقيدة الاسلامية على نصاعتها ؟ وهل بقيت في قلوب اتباعها كما نزلت اول مرة ؟ لابد من الجواب الواضح الصريح ، فانه اهم سؤال بعد الاسئلة الثلاثة الاولى . وللاجابة الواضحة الصريحة – ان شاء الله – سنحاول ان نتابع مسيرة هذه العقيدة على هذه الارض وفق مراحل رئيسية ، ثم نرى اين نحن الآن بين هذه المراحل ونستشف الجواب مستعينين بحقائق التاريخ :

المرحلة الاولى : مرحلة الصفاء :

ونعني بها مرحلة الوحي وما كان قريباً منها . حيث كانت العلوم الاسلامية كلها تمثل علما واحدا مصوغا بصياغة الوحي ، وارتبط بهذا توحيد مصدر التلقي عند المسلمين ، وكل سؤال طارىء فالوحي يجيب عنه ، وكل مؤامرة او مجادلة باطلة فالوحي يكشفها .

لقد تسلم الناس آنذاك الاجوبة المقنعة لبداية كل عمل : من رب العمل ؟ وكيف نأخذ التوجيه منه ؟ وماهو اجرنا ؟. فالله ربهم ، وتوجيهه عن طريق رسوله ، والاجر الجنة ، هذه عقيدة الوحي ، وهي عقيدة السلف السهلة الواضحة المقنعة ، تسلموها وانطلقوا ، انطلقوا في المشروع الكبير ، وانجزوا ما انجزوا .

سمات هذه المرحلة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، جيل اجير عند ربه لغاية رسمها هو – سبحانه – . فهمها الصغير والكبير ، الرجل والمرأة ، الشريف والوضيع ، لم يعانوا من اي مشكلة في جانب الاوليات والمنطلقات ، كانت تواجههم مشاكل عملية : الاستهزاء ومكر الشيطان ، وسيف المشركين ، لكنهم بعقيدتهم عرفوا دور هؤلاء جميعاً ، فلم يكترثوا بهم ، لقد قالت لهم عقيدتهم :"ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض "[1] فصبروا على الابتلاء ، حتى النفس الاخير..

المرحلة الثانية : مرحلة الخرق :

نعني بهذه المرحلة تلك التي اعقبت الفتوحات الاسلامية الكبرى ، حيث انتهت

---

(١) محمد : ٤ .

قعقعة السلاح او كادت ، في العراق والشام وغيرها . ولكن على رماد تلك المعركة ، قامت معركة اخرى معركة الفكر التي اقحم المسلمون فيها من غير استعداد كاف ، ذلك ان الاسلام بفتوحاته هذه قد صدم واصطدم بدوائر حضارية كبيرة وعريقة ، وما كان من السهل على اولئك الاميين بالرغم مما اوتوه من نور الوحي ان يفهموا طبيعة تلك الفلسفات التي قامت عليها تلك الحضارات ، فضلا عن كشف عوارها وازاحتها عن الطريق .

لقد استطاع الاسلام ببساطته وشموليته وواقعيته ان يزيح آثار تلك الفلسفات عن عقول الجماهير الكبيرة في هذه البلاد ، ودخل الناس في دين الله افواجا ، الا ان الساسة واهل الرأي والنفوذ فيهم الذين آلمهم سقوط مجدهم وزوال سلطانهم ، ما تركوا الساحة ابدا ،وانما كما يقال هربوا من الباب فدخلوا من الشباك ، لقد انهزموا في المعركةوربما دخلوا في الاسلام ايضاً لكن ليبدءوا مع الاسلام معركة اخرى ، والمعركة هذه كانت خطيرة وواسعة ، استخدم فيها اولئك الغدر والخيانة مع الكيد الفكري المنظم ، فلقد استطاعوا قتل الخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وربما كانوا ايضا السبب في مقتل عثمان – رضي الله عنه – ثم في الفتنة الكبرى : فتنة علي ومعاوية وعائشة وطلحة والزبير –رضي الله عنهم – وفي الجانب الاخر استطاعوا فعلا ان يحدثوا خرقا كبيراً في نمط التفكير عند المسلمين ، اخرجوهم به من دائرة العمل الى دائرة الجدل ، ومن ميدان التكليف الى ميدان الغيب .

انني فعلا لا اميل الى ان نلقي دائما بأسباب اخفاقاتنا الى ما وراء الحدود ، الى العدو الحاسد الحاقد ، غير اننا هنا نرى الامر واضحا جليا ، هؤلاء الذين كانوا يحملون ثقافات عريقة ورثوها عن آبائهم واجدادهم ، هل كان من السهولة ان يتناسوها جملة واحدة ؟! كان من الطبيعي ان يثيروا – ولو بحسن نية – جملة من التساؤلات ، ويريدون الاجابة عليها ، ولنأخذ بعض الامثلة وسيتبين من خلالها مدى تأثير هذه التساؤلات على ما حدث للامة بعد مرحلة الصفاء :

أ – من عقائد بلاد فارس المعروفة عقيدة"الثنوية"وهي القول بقديمين مؤثرين في الوجود : احدهما مسؤول عن الخير وهوالنور ، والثاني عن الشر وهو الظلام ، هذه العقيدة لم تزل بالفتوحات الاسلامية ، والدليل على انها لازالت تحتفظ ولو ببعض كيانها هو ما نقرأه عن علمائنا من اهتمام بمناقشة هذه العقيدة وردها حتى بعد الفتوحات بقرون ، وانظر مثلا الى الباقلاني – رحمه الله – كيف عقد بابا خاصا في كتابه"التمهيد "للرد على هؤلاء ،وقد ذكر لهم شبها كثيرة وانشغل كثيرا بردها [1] والباقلاني توفي سنة (٤٠٣) للهجرة فليتأمل .

ان الاسلام حينما جاء ليهزم هذه العقيدة الشركية بعقيدته التوحيدية ، فانه سيشخص امام الفاتحين سؤال صعب : اذا كان ماثمة الا اله واحد ، فمن خالق هذا

---

(١) الباقلاني : التمهيد ٧٨ – ٨٧ . وانظرترجمته في الملحق .

الشر الذي نراه ونلمسه ؟ الله ام غيره ؟ اذا كان الله فهذا نقص ، واذا كان غيره ، عدتم الى الثنوية .

هذا السؤال وجه الى المسلمين ، ولم يكن لهم جواب موحد ، فاختلفوا ، لقد جاؤا الى القرآن فوجدوا القرآن يقول :"الله خالق كل شئ" [1] ويقول :"ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك" [2] فالسيئة أهي من الله لان الله خالق كل شئ ؟ ام هي من نفسك ؟! تباينت الاجوبة وكان هذا التباين بداية الخطر ، فكل مانسمعه من فرق ظهرت في تلك الحقبة كالقدرية والجبرية وغيرهما كانت لهذا التباين .

والدليل على ان هذا السؤال طرح عقيب الفتوحات مباشرة ، وانه بتأثير اولئك ما رواه مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر : قال :"كان اول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني . فانطلقت انا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين او معتمرين ، فقلنا : لو لقينا احدا من اصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر . فوفق لنا عبد الله بن عمربن الخطاب داخلا المسجد ، فاكتنفته انا وصاحبي احدنا عن يمينه والاخر عن شماله ، فظننت ان صاحبي سيكل الكلام الي ، فقلت ابا عبد الرحمن : انه ظهر قبلنا اناس يقرؤن القرآن ويتقفرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وانهم يزعمون ان لاقدر وان الامر أنف ، قال : فاذا لقيت اولئك فاخبرهم اني برئ منهم وانهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو ان لاحدهم مثل أحد ذهبا فانفقه ماقبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" [3]

ب - من عقائد اهل الشام النصارى عقيدة التثليث ، والقول بالوهية عيسى - عليه السلام -وكان على الاسلام ان يبطل هذا الشرك بعقيدة التوحيد فالله خالق عيسى ومن سواه ، ومع ان جمهوراهل الشام قبلوا عقيدة التوحيد هذه لكنه من الطبيعي ان يبقى فيهم من يأبى الا العناد والمكابرة ، وانه سيعمل لرد هذه العقيدة الغازية بما يستطيع ، انه يستطيع ان يقول : عيسى كلمة الله ، فهل كلام الله مخلوق ؟ لقد روى بعض المؤرخين مايثبت هذا ، فقد رووا عن يوحنى الدمشقي انه كان يلقن بعض المسيحيين ليجادلوا المسلمين ، فيقول :"اذا سألك المسلم : ماتقول في المسيح . ؟ فقل انه كلمة الله . ثم ليسأل النصراني المسلم : بم سمي المسيح في القرآن ؟ وليرفض ان يتكلم بشئ حتى يجيب المسلم ، فأنه سيضطر الى ان يقول :"انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه" [4] فليسأله عن كلمة الله وروحه أمخلوقة هي ام غير مخلوقة ؟" [5] .

---

(١) الزمر :٦٢ .

(٢) النساء : ٧٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى : ١/١٥٠-١٥٦ .

(٤) النساء : ١٧١

(٥) ابو زهرة ، المذاهب الاسلامية : ٢٦٠ . ونقل النص عن كتاب تراث الاسلام .

ان هذا السؤال صحت به الرواية ام لا وارد ، وربما يكون هذا السؤال قد واجه الفتح الاسلامي من البداية ، وانه هو الذي فرق الامة الى فرق اخرى وبشطريه ، اما الشطر الاول : فالسؤال عن كلام الله ، امخلوق هو ام لا ؟ لقد صدر جوابان ضدّان لهذا السؤال ، قال المعتزلة : كلام الله مخلوق وعيسى مخلوق ، وقال اهل السنة : كلام الله صفة له ، وصفات الله قديمة بقدمه – تعالى – واما عيسى : فانه مخلوق . وانه كان بكلمة الله ، ولا يعقل انه هو الكلمة .

واما الشطر الثاني فمع اتفاق المسلمين على الاجابه عنه بتأويله على معنى الاضافةالاختصاصية ، لا الوصفية ، بمعنى ان عيسى روح الله ، اي : الروح المخلوقة لله ، كما قال عن ادم – عليه السلام – :"فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"[1] ، فآدم ليس الها باتفاق ، وكذلك عيسى اذ هو روح الله كما تقول : خلق الله ، وبيت الله وناقة الله ، واضافة بعض مخلوقات الله الى الله تعني نوعا من التشريف او نحوه ، غير ان هذا الاتفاق لم يحل دون الانشقاق حيث اصبح القول بوجود اضافة على معنى الاختصاص والتشريف هو المتكأ العريض للمدرسة العقلية في تأويل كثير من "الصفات الخبرية" فقول الله – تعالى –"تجري بأعيننا"[2] ، قال المؤولون من الممكن ان تكون العيون التي فجرها الله في الارض واضافها الى نفسه للاختصاص ، يقول البغدادي : "وقوله في سفينة نوح :"تجري باعيننا" ، اراد بها العيون التي جرت بها السفينة من الماء لانه قال : "ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر"[3] وانظر الى الجويني كيف يصوغ المسألة :"ثم لابعد في تكريم بعض العباد بالتخصيص بالذكر ، ونظائر ذلك في كتاب الله كثيرة ، فانه – عز اسمه – اضاف الكعبة الى نفسه ... واضاف روح عيسى – عليه السلام – الى نفسه ، والاضافه تنقسم الى اضافة صفة ، واضافة ملك واضافة تشريف[4] ثم يقول : "ومما يجب الاعتناء به معارضة الحشوية بآيات يوافقون على تأويلها ، حتى اذا سلكوا مسلك التأويل ، عورضوا بذلك السبيل فيما فيه التنازع[5] فذاك الاتفاق اذاً لم يحل دون هذا الاختلاف بل جعل مقدمة له ، وسلاحا في المعركة .

اننا نخلص من هذين المثالين الى تشخيص دقيق لهذه المرحلة . انها مرحلة الارتباك والاضطراب ، مرحلة نشوء الفرق المتباينة المتناحرة .

لقد تميزت هذه المرحلة بمحاولة الوقوف امام التشكيك الخارجي او الغزو

---

(١) الحجر : ٢٩ .

(٢) القمر: ١٥ .

(٣) البغدادي : اصول الدين : ١١٠ . والاية ، القمر : ١١-١٢ .

(٤) الجويني : الارشاد ١٥٦ .

(٥) المصدر السابق : ١٦٠ .

الفكري ، وكانت فيه الحرب سجالا ، الا انها اغنت العقل الاسلامي بتجربة هائلة ونتاج فكري كبير ، لكن هذا صحبته رعشة داخلية اتخذت في الاغلب طابع ردود الافعال العنيفة ، والفتاوى المتشنجة التي يصدرها كل فريق بحق الفريق الاخر. وربما صاحب هذه الفتاوى اضطهاد سياسي وكبت لحرية التعبير عن الرأى ، كما هو الحال ايام سطوة المعتزلة وفتنة الامام احمد – رحمه الله – .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقرار :

ونعني بها تلك المرحلة التي هدأت فيها الاطراف المتصارعة، لطول الامد اولا ، ولتعرض الامة لخطر الاعدام الجماعي على يد فكي الكماشة الظالمة الغاشمة ، حيث كانت الهجمة الشرقية التترية التي لاتبقي ولاتذر والمتزامنة مع الهجمة الغربية الصليبية ، لقد كانت اياما سوداء ، ذبح فيها العلم وانتهكت فيها الاعراض وأهين المسجد الاقصى، وسقطت بغداد وسال نهرها بالدم والمداد ، ان هذه المحنة اماتت ردود الافعال الداخلية واتجهت الانظار لدفع الخطر الخارجي ، وكانوا بحاجة الى منهج وسطي ينصب الجسور بين المذاهب المتصارعة ، ويدفع الجميع نحو الجبهة .

لقد فتش صلاح الدين الايوبي عن هذا المنهج القادر على اقناع الجميع واماتة روح الحساسية في نفوس المختلفين ، فوقع اختياره على المذهب الاشعري ، وتقبل الناس هذا الاختيار ، وعم الوفاق – الا ماشاء الله – فاصبحت الامة تقريباً على مذهب اعتقادي واحد ، يقول المقريزي – رحمه الله – :"فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبدالملك بن عيسى بن برباس المازني على هذا المذهب ، قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نورالدين محمد بن زنكي بدمشق ، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة الفها له قطب الدين ابو المعالي سعود بن محمد بن مسعود النيسابوري فصار يحفظها صغار اولاده، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الاشعري ، وحملوا في ايام دولتهم كافة الناس على التزامه"ويقول ايضا :"هذا هو السبب في اشتهار مذهب الاشعري وانتشاره في امصار الاسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه الا ان يكون مذهب الحنابلة" [1].

والمذهب الاشعري لم يستطع ان يحقق هذا بقوة السلطان فحسب اذ لو كان الامر كذلك لزال بزوال السلطان ، غير ان طبيعة هذا المذهب قادرة في الاغلب على قتل روح الحساسية، انه مذهب توفيق وسطي ، ولذا استطاع ان يضم في داخله اتجاهات متجاورة متآخية مع مابينها من خلاف منهجي، فقد ضم جمعا كبيرا من المفسرين والمحدثين والاصوليين والفقهاء واللغوين وغيرهم ، فصار هذا المذهب بواقعه يضم

(١) المقريزي : الخطط : ٢/٣٥٨-٣٥٩.

اتجاهات مختلفة . فمثلا لو نظرت الى تيار امام الحرمين الجويني ثم وريثه الحق الغزالي ثم الرازي لوجدت ان هؤلا الثلاثة - عليهم رحمة الله - يمثلون التيار الاشعري العقلي او الفلسفي ، ولو اتجهت الى الخطابي والبيهقي والنووي وابن حجر - رحمهم الله - لرأيتهم يمثلون التيار الاشعري الحديثي ، الذي شاع عنه الاهتمام بالسنة والحديث اكثر من الاتجاه الاول ، هذان التياران مع الخلاف المنهجي بينهما بقيا متآخيين يعضد احدهما الاخر . وهذا ماتحتاجه الامة دائما : التعددية التخصصية القائمة على اساس الحب وحسن الظن !! وفي رأيي ان هذا هو الذي حشد الطاقات لبناء الامة الاسلامية من جديد، وللوقوف بوجه التحديات حتى كلل هذا كله بفتح عظيم وصلاة في المسجد الاقصى .

صحيح ان هذه المرحلة لم تخل من خلاف وصراع لاسيما بعد ظهور ابن تيمية - رحمه الله - لكن ابن تيمية وغيره ما استطاعوا ان يحدثوا تيارا كبيرا يواجه السيل القوى . فبقيت هذه المرحلة تمثل الاستقرار من حيث العموم او الاغلب .

والصحيح ايضا ان هذا الاستقرار والوفاق لايعني بالضرورة ان المنهج الاشعري هو الحق في كل تفصيلاته . وانما يعني شيئا واحدا مهما هو ان المنهج هذا لديه القدرة على التوفيق والمصالحة لما يحويه من مرونة وسعة صدر وقدرة على تحمل الرأي المخالف او التعددية المذهبية .

المرحلة الرابعة : مرحلة السبات :

لقد زال خطر التتار وانهزم الصليبيون ، وعاد الامن الى المسلمين بعد مرحلة من الاستقرار الفكري . ولم ير المسلمون هذه المرة من اعدائهم المهزومين ما رأوه سابقا من فارس والروم ، فلم يطرح المنهزمون اسئلة كتلك ، فاستسلمت الامة لنوع من الخدر الفكري ، ولم تعد طروحات العلماء سوى ترديد لاقوال اسلافهم ، انها مرحلة سبات فكري حقيقية ، لكن الجانب العملي كان متيقظا ، فقد انطلقت جيوش العثمانيين الى قلب اوربا فاتحة مبشرة بدين الله . ودخلت اقوام كثيرة في دين الاسلام ، كأهل البوسنة والهرسك وغيرها .

لكن هذا التيقظ العسكري مالبث هو الاخر ان انحسر مده وبدأت فيه سنة من النوم تحولت بمرور الزمن الى نوم عميق .

بعد هذا كله اصبحت الامة تعيش سباتا حقيقيا في كل الميادين : الفكرية والعسكرية، والاقتصادية ، واستمر هذا الوضع حتى سقوط الخلافة الاسلامية ، وسيطرة الاستعمار - اليهودي الصليبي - على مقدرات المسلمين . هذه السيطرة التي لم تكن في الجانب العسكري فحسب بل وفي الجانب العلمي والفكري والاقتصادي ، وشاعت في الامة بعد هذا مفاهيم غريبة عن الاسلام ، اسئلة لم يسمع بها المسلمون من قبل، اسئلة تتناول كل شئ : العقيدة ، والاقتصاد ، والمرأة ، والاخلاق .... الخ وراحت الامة مغمضة